في شرح "العوامل المئة" للجرجاني

منهج تدريس علمي

يسجله الشيخ خالد الأزهري

للأستاذ محمد شوقي أمين

١ — **كان** منهج التأليف العلمي في

القرون المتقدمة أشبه بما عهدناه في العصر الحديث من منهج المحاضرات وأساسه عرض الحقائق العلمية وتفاريعها ، وفيما يتعلق بنحو العربية يتبين ذلك جليا في مؤلفات سيبويه والمبرد والفارسي وابن جني وأضرابهم .

ولما جاء عهد الشروح ، كان منهجها اول الأمر قريب الشبه بمنهج التأليف ، إذ يعرض الشارح لما قاله المصنف ويشرحه موضحا له ، أو رائدا فيه ، أو معقبا عليه ، وذلك واضح فيما يتعلق بالنحو في شروح الرضي وابن يعيش والسيوطي ، ومن لف لفهم من النحاة وخلف من بعد هؤلاء خلفاء عرفناهم باسم علماء الحواشي والتقارير ، وكان لهم منهج متميز عن منهج المؤلفين أو الشراح ، بأنه يعنى بمناقشة عبارات التأليف أو الشرح ، وإضافة ما يعد نقدا أو ترجيحا أو إضافة ، والأمثلة على ذلك فيما يتعلق بالنحو عند النحاة المتأخرين كثيرة ، أظهرها وأقربها منا حاشية الصبان وتقرير الإنبابي وغيره .

٢ — وثمة منهج آخر بعيد كل البعد عن منهج المحاضرات الحديث ، بعيد بعض البعد عن منهج الشراح وأصحاب الحواشي والتقارير ولم يكن هذا المنهج ملحوظا بوضوح فيما حررت به أقلام المؤلفين ، أو فيما أملوه على الدارسين ، بل كان له مجال يتمثل في جانبين : الجانب الأول .. حلقات التدريس في الأزهر أو ما يشابهه من معاهد التعليم ، والجانب الآخر مجلس الامتحان للفوز بالإجازة العلمية .

في الجانب الأول كان المدرس يعرض لعبارة المؤلف أو الشارح ، فيوسعها عرضا وإيضاحا ، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يتطرق إلى كل ما يتصل بالموضوع ويستطرد ليتناول العبارة من جوانب لا تتصل بالموضوع عينه ، وإنما بفروع شتى من العلوم العربية ، وأما الجانب الآخر فكان الشأن فيه أن يحدد الدارس المتقدم للامتحان ما يسمى « التعيين » ، وهو جملة من كتاب معين ، يتهيأ الدارس ليمتحن فيما حوته من العلم ،

فإذا جلس مجلس الامتحان تداوله شيوخه بالأسئلة المتنوعة ، على جهة الاستطراد والتطرق ، لمعرفة ما للطالب الممتحن من قدرة وكفاية . وفى كلا الجانبين ، وبخاصه فى الجانب الآخر ، تدور المناقشة فى آفاق شتى من المعرفة ، لا تقتصر على موضوع النص ولا تكتفى بمرع العلم الذى يتناوله الدرس أو يجرى فى خصوصه الامتحان . وخلاصة هذا المنهج أن المدرس مع طلابه فى حلقة الدرس ، أو الطالب مع شيوخه فى مجلس الامتحان ، يتنقل فى العرض والمناقشة ، تطرقا واستطرادا بين فروع وأنحاء شتى من العلوم . ولعلنا نستوفى هذا المنهج حقه من الإبانة إذا قلنا إنه منهج موسوعى ، ونعنى بالموسوعية معنى العمق وسعة الأفق والشمول ، وبذلك يخرج الطالب من الدرس أو مجلس الامتحان وقد دار فى مدارات متباينة من نحو ولغه وبلاغة وعروض ومنطق وغير ذلك مما يتسع له مقام الموضوع على قرب أو على بعد .

٣ — هذا المنهج الذى ألمعنا إليه ، يختلف عن منهج التأليف عند الأقدمين ، ومنهج الشرح والتحشية والتقرير فى العصور المتوسطة ، ومنهج المحاضرات فى العصر الحديث ، بيد أن هذا المنهج — لأن الأساس فيه المشافهة فى مجالس العلم ومذاكرته — ليس له صورة واضحة فى التآليف المكتوبة .

وأرجو ألا أكون مغاليا إذا صارحت بأن العالم الذى ترك لنا نموذج هذا المنهج مكتوبا ، ومصورا لخصائصه ، هو علامة النحو فى القرن التاسع الهجرى[٣] ، المعروف باسم « الشيخ خالد الأزهرى » ، وله من التآليف النحويه جمله ، أشهرها كتاب « التصريح بمضمون التوضيح » شرح فيه كتاب « ابن هشام » المسمى « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » ومع أن « للشيخ خالد » عددا من التآليف فى النحو ، ومنها ما هو شرح لعبارات مؤلفين سابقين ، فإنه لم ينهج فيها هذا المنهج الذى انفرد به فى أحد كتبه تأليفا أو شرحا ، وأكاد أقول هذا المنهج انفرد هو به تدوينا فى كتاب ، بعد أن كان على هذه الصورة المستفيضة المتشققة ، متعارفا بالمشافهة فى حلقات التدريس ، أو فى مجالس الامتحان .

٤ — بيان ذلك أن إمام العربية لغة ونحوا وبلاغة « عبد القاهر الجرجانى » له رسالته الفذة المسماة « العوامل المئة » أو « عوامل عتيق » تمييزا لها عن رسالة أخرى « للجرجانى » فى موضوع « العوامل المئة » أيضا .

وقد تجرد « الشيخ خالد » لشرح « عوامل عتيق » ، فكان له فى الشرح ذلك المنهج العريب .

وما أحسن ما صنع الأستاذ الدكتور « البدراوى زهران » فى إخراجه لهذين المتنين للعوامل المائة » كما عرضها « الجرجانى » مع شرح « الشيخ خالد

الأزهرى «للمتن الاول . وهو عوامل عتيق » . فقد بذل من جهد نبحت والتعريف . ومن تحقيق النصوص والتعليق عليها ما هو أهله . ولكنه آصاف إلى ذلك كله حسة أخرى كانت هى المصباح الكاشف عن منهج « الشيخ خالد » فى شرح النصوص ذلك أنه حرص أيما حرص على تحصيل طباعى . أفرد له كل مقولة أو توجيه . فمرر بذلك فكرة مناقشة الشارح لكل جملة جرجانية . كما مرر نقداته وتعقباته عليها غير مدجة فى عضون السرد والعرض .

فأنت ترى « الشيخ خالد » يسوق الكلمة أو الجملة من كلام « الجرجانى » ، فيبدأ بتحليلها إعرابا أو بالإبانة عن معناها تفسيرا . وهنا يعرض ما عسى أن يعن للناحس من وجوه الشبهات جوا و لغة أو دلالة اصطلاحية أو غيرها . فيجيب عنها . ورنما عرض لما فى الجواب من شبهة مسترعة . فلا يدعها حتى يحسم الكلام فيها . وهو فى هذا كله مسترسل فى التفصيل والتمحيص . غير واقف عند جوهر الموضوع المطروح وضوابطه العلمية . وكأنك حين تمضى فى قراءة ماثر مكتوب فى حلقة درس تجرى فيه المناقشة بين الدارسين وشيخهم فى طلاقة واسترسال

وفى متابعتك للشيخ ومقولاته وجواباته لا تكاد تقضى العجب من ذكائه وقدرته وقوة عارضته فى الاعتراض . وبراعته فى التوجيه والانتقاد .

وأنت فى جوه هذه المعارك الفكرية التى يديرها الشيخ . محرر من الفوائد على اختلاف مناحيها مايؤنسك فى اطلاعك . حتى إنك فى بعض ما يدير . تقبل منه ما عسى أن تكره . إعجابا بهذا الفكر العلمى الذى يتوهج فى ألمعيته

٦ — وهـذا المنهج يسرى فى شرح « الشيخ خالد » مسرى الدم فى العروق . ولكنى أحسب أنه أراد أن يطبق ما يعرفه البلاغيون باسم « مراعاة الاستهلال » فى تطبيق منهجه ؛ فأنه افتتح شرحه بالوقوف عند الجملة الأولى من المتن . وهى « والعوامل فى النحو ، على ما ألفه الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى رحمه الله عامه مئة عامل »

فأثار حولها من المسائل اللغوية والإعرابية والدلاليه عشرات . فى إطار قوله « فإن قيل كذا قلنا كذا » . فأتاح للقارئ سياحة علمية فكريه مع الشيخ يود لو أنها تمتد

وإنى أجترىء بسرد بعض هذه المسائل المثارة وإليكها

ما معنى العامل فى اللغة ، وفى الاصطلاح؟ وما العامل المقيد ؟ ، وكيف يجمع على عوامل ؟ . وما معنى اللام فى العوامل ؟ ،

للجنس أو للاستغراق أو للعهد الخارجي الحقيقي أو الحكمي ؟

وقوله في النحو ، ما هذا الظرف هل هو ظرف مستقر أو هو ظرف لغو ؟ وما النحو على اختلاف معانيه ؟ وما موضوعه ؟

وقوله : « على ما ألفه الشيخ » ما التأليف وما التصنيف ؟ وما الجمع ؟ ولم اختار التأليف ؟ ، وما معنى الشيخ ؟

وقوله « رحمة الله عليه » ما معنى الرحمة ؟ وكيف يوصف بها الله ؟

وقوله . « مئة عامل » كيف يكون خبرا عن جمع ؟ ومتى تصح مراعاة الجهة المعنوية ؟ ولماذا لم يقل « مئة عوامل » ؟ وما المرجح ؟ وما معنى الإضافة ؟ هل هي بمعنى « اللام » أو « في » او « من » ؟

وفي مطاوي الشرح أمثلة كثيرة متتابعة لهذا المنهج ، تسترعي الانتباه ، منها ما هو ترديد لما سبق إليه نحاة ، ومنها ما يترجح أنه من عند نفسه ويعرض هنا قوله في مناقشة دلالة الاستثناء ، والحوار حولها « فإن قيل إن زيدا في قولك « جاءني القوم إلا زيدا » إما دخل في القوم أو خرج عنهم فلو قلت إن زيدا خرج عنهم لا يكون مخرجا عنهم زيد ، لأن إخراج الشيء فرع دخوله ، وأيضا يلزم خلاف الإجماع ، لأنهم اتفقوا على أن الاستثناء المتصل مخرج ولا إخراج : إلا بعد الدخول لأنه لو قيل : له علي عشرة إلا درهما ، فالدرهم داخل في العشرة ثم أخرج . ولو قلنا : إن زيدا داخل في القوم ثم أخرج إلا لكان المعنى جاء زيد ولم يجئ زيد ، فيلزم التناقض الصريح وحاصل التناقض ان القوم مثلا عبارة عن تسع أنفس مع زيد وزيد واحد من التسع ، فإذا كان القوم متصفين بالمجيء وزيد اتصف بالمجيء لأنه واحد منهم فإذا قيل « إلا زيدا فلم يتصف زيد بالمجيء ، فيلزم أن زيدا متصف بالمجيء وعدم المجيء ، ليس هذا إلا تناقضا فكيف مثل هذا يقع في كلام الله تعالى ، مع أنه قد وقع : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما » فيكون المعنى : لبث الخمسين في جملة الألف ، ولم يلبث تلك الخمسين . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فيل إن دخول المستثنى في المستثنى منه ثم إخراجه منه بإلا وأخواتها إنما كان قبل إسناد الفعل . فلا يلزم التناقض في قولك .

جلس القوم إلا زيدا ، لأنه بمنزلة قولك . القوم المخرج منهم زيد جاء ولي . وكذا لا يلزم التناقض في نحو قوله . له عشرة إلا درهما ، لانه بمنزلة قولك : العشرة المخرج منهم درهم له علي . وذلك لأن المنسوب إليه الفعل هو المجموع المركب من المستثنى والمستثنى منه ، وإن تأخر المستثنى لفظا عن الفعل ، لكن لا بد من تقدم وجود على النسبة التي يدل عليها الفعل ،

إذ المنسوب إليه هو المخصوع والمنسوب هو الفعل سابقا على النسبة بينهما ضرورة في الاستثناء لما كان المنسوب إليه هو المستثنى منه مع إلا والمستثنى . فلا بد من وجود هذه الثلاثة قبل النسبة فلا بد إذن من حصول الدخول والإخراج قبل النسبة فلا تناقض »

وكما كانت تلك « براعة الاستهلال » في الشرح ، على هذا النهج . كان « حسن الختام » أيضا ، كما هو عند البلاغيين فهو يختم شرحه بالعامل المعنوى التالى . وهو عامل الرفع في الفعل المضارع فهل هو التجرد من ناصب وجازم ؟ وهل هو وقوعه موقعا يصح وقوع الاسم فيه ؟ وهل يعتبر المضارع اسما أو قوعه موقع الاسم ؟ وهل العامل حروف المضارعة نفسها ؟ وهنا تتوالى المقولات في مناقشة هذه الأوجه ، وفي الجواب عما يعترض به عليها ، وذلك في متابعة وتسلسل

٧ — وقد تناقل الدارسون في حلقات العلم ، وخاصة في الأزهر ، كلمة « المقلة » وهي حث من قولهم « إذ قيل » ويجمعون على « المقل » أو « المقلات » وفي هذا الشرح الحالدى للمتن الجرجاني تنساب كلمة « إن قيل » انسيابا لا خفاء فيه . كما ينساب عن كل « مقلة » حس الجواب ، وفصل الخطاب

٨ — وقصارى القول في هذا الشرح أنه يتميز بأمرين

الأمر الأول نزعة المناقشة للعبارة . والتطواف بمختلف الوجوه النحوية للمسائل

والأمر الآخر الحرص على إعراب الأمثلة على اختلاف النظر إليها

وفي كل ذلك مادة نحوية غزيرة . ورياضة فكرية في ممارسة التحليل الألفاظ والجمل والشرح قبل ذلك وبعده فيه ملامح التعليل تنم عن أسلوب التدريس والمناقشة العلمية قديما في الحلقات والمجالس بين الطلاب والشيوخ !

محمد شوقي أمين

عضو المجمع